متصوفة بلدان الساحل الإفريقي وموضوع الولي والولاية

د. الحمدي أحمد
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية
جامعة وهران

تمهيد:

تعد الولاية من أبرز المواضيع الصوفية التي شغلت بال الباحثين، الذين تتبعوا فكرة صدق التوجه إلى الله. وتعتبر المصادر التي أعتمدها علماء الساحل الإفريقي، أثناء تناول هذه المسائل: صلاة الأنوار لابن مشيش العلمي، وأحزاب تلميذه أبي الحسن الشاذلي، وحزب الفلاح، ودلائل الخيرات، كلاهما لمحمد بن سليمان الجزولي، وحكم ابن عطاء الله السكندري، وقصائد عبد الله الشقراطي التونسي، وأحمد الشريشي السلوي، وابن الفارض المصري، وابن البناء السرقسطي، وغيرها من مؤلفات كبار الصوفية.

الولاية والأولياء:

إن الخصومات بين العلماء حول موضوع الولاية، والتي وصلت إلى درجة العنف وتتابعت عبر الأجيال، وهي غالبا ما كانت تستند في احتجاجاتها على دعاوى التبديع والتفسيق، وقد عرضها البعض[1] في مؤلفاته عرضا منهجيا لم تفتر ولم تتوقف، وإنما ظهرت بأقوى من ذي قبل مع ظهور الحركة السلفية، وامتدت حديثا إلى بلاد شنقيط، والسودان الغربي، وبلاد الساحل الإفريقي. وانتهت هذه المناقشة إلى وضع الشيخ عمر الفوتي لكتابه في الدفاع عن الأولياء، وهو المسمى رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم. وغرضه الدفاع عن حرمات أولياء الله

الصالحين، بما جاء من نصوص كتاب الله، ونصوص سنة خير خلق المرسلين، وما أجمع عليه السواد الأعظم من العلماء الراسخين، من وجوب تصديقهم، وتخليد تحقيقهم في مقامات التمكين. والسبب في ذلك أنه انتشر في بلاد شنقيط حركة تنكر على الأولياء، قادها المختار ولد بونا الجكاني[2] والمجيدري،[3] ومن تأثر بهما، وأعلانا كفر من يعتقد بصدق أولياء الله. وغير خاف تأثير المجال الشنقيطي على بلدان الساحل، فالامتدادات العلمية والاستمرارية المعرفية، لم تنقطع ولم تفتر منذ عهود طويلة.

فكان هذا التأليف رغبة في الانتصار لجانب أولياء الله، وليبين لعامة المسلمين حقيقة هذا المنكر، حتى يكون على بصيرة من ظلمهم، وهذيان من ينكر عليهم أفكارهم. والمؤلف يهدف من خلال هذا الكتاب إلى إقناع الذين تأثروا بتلك الأوهام بالرجوع عن غيِّهم، فإن انتهوا وتابوا إلى الله فذلك هو المطلوب، وإن تعصبوا لأطروحتهم فالله حسيبهم:(وَسَيَعلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ).[4] وقد قسم كتابه فصول عديدة منها: واجب الدفاع عن الأولياء، وترغيب الإخوان في الانتساب إلى أولياء الله، وبيان أن زهد الكُمّل ليس معناه خلو اليدين من الدنيا وإنما خلو القلب منها، التحذير والتنفير عن الإنكار على واحد من سادتنا الأولياء ومعاداتهم، في إعلامهم أن الولي المفتوح عليه لا يتقيد بمذهب معين من مذاهب المجتهدين، وغيرها من الفصول الهامة في هذا التأليف.[5]

إن القضايا التي دافع عنها عمر الفوتي من خلال كتابه الرماح لمناقشة خصومه هي البرهنة على حقيقة الولي وشروطه، التحذير من الإنكار على أولياء الله الأخيار، وذكر المفاضلة بين العلماء بالله وبين العلماء بشرع الله.

وعند تعرض محمد بلو للحديث عن والده الشيخ عثمان بن فودي، ذكر بأن الأولياء قد بشّروا به قبل ظهوره، وقالوا سيظهر في هذا : «القطر السوداني ولي من أولياء الله يجدد الدين، ويحي السنة، ويقيم الملة، ويتبعه الموفقون!».[6]

وراثة الأنبياء:

وفي النصوص المتعلقة بالوراثة، يلفت علماء بلاد الساحل الإفريقي نظر الباحث إلى كيفية وراثة الأنبياء، وينبهوا إلى أن الإرث النبوي تحكمه صلات نظام الإرث، والعلاقة بين الولي وإرثه النبوي، علاقة تؤثر في سلوك الولي، وتطبعه بخصائص معينة، لا تخطئها العين. هذه الخصائص هي الخشية وعبادة الله حق العبادة، والتواضع، فشرع لنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن نعبد الله كأنّا نراه،[7] وأدخله لنا في الخيال، وهذا هو معنى التصوير، إلا أنه نهى عنه في الحس أن يظهر في هذه الأمة بصورة حسية. ومعنى ذلك أن عبادة الله تعالى كأنّا نراه، أي العبادة مع تدخل قوة الخيال، أو ملكة الخيال.

هذه الوراثة التي لمح إليها محمد بلو، الذي حكا عن نشأة الشيخ عثمان بن فودي، وهي نشأة مكنته من تحصيل العلوم والتبحر فيها، وكان وقافا على حدود الشريعة. حتى صار معظما عند الخاصة والعامة، واستحق لقب المجدد: «على هذا القرن».[8] وبلغ به تواضعه أنه اعتبر نفسه أقل من الحشرات! والشيخ عثمان ـ حسب محمد بلو ـ هو شيخ الوقت وقطب الأئمة في جميع العصور.

ويُبيّن عمر الفوتي الوراثة في معرض إجابته عن سؤال ورد عليه ونصه: هل أصل الورد هو متلقي من تلقاء الإلهام الذي تلهمه الأولياء، أو له سند إلى الوحي الذي يختص به الأنبياء؟ فأشار إلى أن الورد من حيث هو ورد أصله من الوحي

النبوي والإلهام الغيبي: «... وبساطه الكتاب المنزل والأثر المسلسل، لأن الولي إنما هو نتيجة النبي، فكراماته دلائل على معجزات نبيه المتشبث بأذياله، حتى قيل كل ما صح أن يكون معجزة لنبي يجوز أن يكون كرامة لولي».[9] والتسلسل الذي ذكره هنا يقصد به أن الورد يجب أن يؤخذ عن شيخ متمرس، وله سند متصل. وهو أمر صرح به غيره ممن تمسك بطريق التصوف (طريق القوم)، حيث المنهج الاقتداء بشيخ «سالك قد خبر المجاهدات».[10] وذلك حسب زعمهم استجلابا لمسرتهم[11] واغتناما لبركة دعوتهم، وإلا فاللائق بالعبد عدم سلوك هذه المضايق، على اعتبار أن الخطر عظيم[12] لما يخشى عليه من الأحوال[13] الرديئة إذا لم يتمسك بربه وينقطع إليه.

والجزء الثاني في الحديث: (فإن لم تكن تراه فإنه يراك). فهو أمر خاص بأمة محمد صلى الله عليه وسلم، بل هو من أصول هذه الأمة، والولي ـ بطبيعة الحال ـ لا يمكن له أن يتجاهل هذا الجزء الثاني من حديث جبريل أو يتغافل عنه. وقد اتفق الأولياء أنه لا يتقطّب الرجل من هذه الأمة، حتى يسلم شيطانه الذي هو قرينه. وهو من خواص هذه الأمة، لم تعطه أمة من الأمم السالفة أنبياؤها فضلا عن صلحائها. والفكرة التي يتم تناولها هنا هي الرجل القطب، وهي درجة سامية من درجات الصوفية بل أعلاها على الإطلاق، لأنه لا يوجد في كل عصر إلا قطب واحد.[14] ويبدو أن نموذج القطب له دلالة خاصة في الفكر الصوفي، فهو باعتبار وظيفته ومهمته ينتمي إلى درجة القطبية إضافة إلى أنه قد يحتفظ بالمنصب الظاهري للخليفة، ثم هو ـ وكأي ولي آخر ـ وارث للعلوم.

وبما أنه يجمع بين كل الأحوال والمقامات، فإنه يأخذ مكانه في سلسلة التصوف في طبقة أخيرة يتسم فيها بأعلى درجات الولاية وأقصاها. وبذلك يمثل

القطب القمة القصوى في هذه السلسلة. ويظهر كأنه من المتفردين من البشر، لأنه بلغ نهاية الكمال في سلم المقامات الروحية. ويتميز الأقطاب بالمعرفة، ونهاية المعرفة لديهم هي اعترافهم بعجزهم عن المعرفة، إذ حقيقة معرفتهم أنهم لا يعرفونه إحاطة وكمالا، وأنهم لا يمكنهم ذلك البتة. وواضح ما يحاول المتصوفة من إحاطة هذه الدرجة من هالة وغموض، والهدف بيِّن وهو محاولة تكريس مفهوم التميز بين مختلف الدرجات استجلابا للطاعة وزيادة في الهيبة وفي خضوع المريدين. إذ ما معنى وجود قطب واحد لكل عصر؟! هل القطب هو عالم بالشرع أم هو أعلى درجة من ذلك؟ لعل السبب في إحداث هذه الدرجة هو إضفاء هيكل تنظيمي[15] روحاني لأصحاب الطرق، رغم وجود الكثير من الاختلافات فيما بينها.

والولي هو الاسم الوحيد الذي بقي صالحا للاشتراك في التسمية، يتسمى به المخلوق. والولاية لا تخلو من مظهر من مظاهر التشريع، سواء كانت حقيقة مباشرة فيكون العلم بها مباشرا من مصدرها[16] أو تضمنت في الكليات والقواعد العامة وهو التشريع الناشئ من الاجتهاد، واستنباط الأحكام[17]وتفسير نصوص الشريعة. ولو سَلَّم الباحث بصدق هذا الرأي من أن الولي هو الوصف المتبقي، فما هو موقع العلماء في هذه المعادلة؟ وهذا ما يطرحه الحديث الشريف: (العلماء ورثة الأنبياء). مع ملاحظة أن المتصوفة يرون بأن الأولياء هم المستحقون لهذا الوصف ، أو هم الذين ينطبق عليهم مفهوم الوراثة.

ومن ناحية أخرى يجد الباحث أن فكرة الوراثة، التي تتضمن بالضرورة انتقال شيء ما من مواريث الأنبياء الخاصة بهم إلى الأولياء. هذه الفكرة لا شك تعني أن الولاية ـ بصورة أو بأخرى ـ تابعة للنبوة، وأنها على العموم تمثل صورة من

صور التبعية للنبوة قد تشاركها في ذلك أمور كثيرة. ويوضح أحمد بابا[18] أن روح العلم هو العمل، ويصرح بأن علوم الظاهر إنما تقطع عن طريق الآخرة إذا أخل صاحبها بالعمل. ويصرح محمد بلو أن الله كشف لوالده عن حضرة الأفعال والأسماء والصفات، وأشهده غرائب الذات فصار بحمد الله من أولياء الله، وهو: «يكرع من كاسات القرب ويكتسي من حلل العرفان والحب».[19]

وهذا الذي استنتجه الباحث تؤكده نصوص أخرى فالأولياء هم ورثة الأنبياء، فالأنبياء حجج الله على خلقه، والأولياء أدلة على تصحيح ملته.[20] و أشار أحد المريدين[21] وهو يمدح شيخه إلى هذا بقوله:

وأخرجه ذو العرش للناس نائبًا عن المصطفى والأمرُ فاشٍ وذائعُ
ويُرضع من ثدي المعارف مَن أتى مُريدا ولم تُرضِع كذاك المَراضعُ[22]

وهو يريد بأن الله أخرجه نائبا عن الرسول في هداية الناس، وهي مبالغة واضحة ومكشوفة. ويذكر أنه يغذي مريديه الكثيرين، الذين يأخذون العهود عليه من المعارف الربانية، غذاء لا يماثله أي غذاء لشيخ من شيوخ الطرق الصوفية الأخرى. وفي النص السابق تحريف مفضوح ومكشوف للمراد بالوراثة، إذ أن العلماء هم ورثة الأنبياء وليس الأولياء. إلا إذا كان الولي هو الذي جمع بين العلم والخشية، وبالتالي فالولي هو عالم بالضرورة. وللولاية في فكر عثمان دان فودي الصوفي الدور الرئيس من حيث الوراثة، في بناء مفهوم متكامل للولاية وتكوين إطار شرعي حول حقيقتها.

هذا الاستدراك الذي يحاول ابن فودي وغيره أن يهذّب به رأيه، يبدو أن غيره من الصوفية لا يوافقه عليه، فالولاية حسبهم قد تُنسب لغير العالم، فهذا أبو الرواين[23] كان شيخا، ووليا، وأحد رجال التصريف،[24]ومناقبه لا تحصى، ويتكلم دائما بكلام فاحش! ومع ذلك فإن سكان مكناس[25] يستسقون به، فتنهل عليهم السماء «كأفواه القرب».[26] ومعروف الكرخي[27]ومكانه في التصوف بالغ الأهمية، حتى عدّه بعض المتصوفة مجدد المائة الثانية في الزهد، قيل فيه لأحمد ابن حنبل إنه قليل العلم. فقال للقائل: «وهل يحتاج العلم إلا لما وصل إليه معروف».[28] والعلم الذي يقصده ابن حنبل دون شك هو العمل، ودرجة الالتزام بتعاليم الإسلام، إذ أن العلم المطلوب هو الذي يورث الخشية من الله، ولو كان قليلا.

الأنبياء والأولياء:

ومرة أخرى يبدو للباحث أمر العلاقة ـ هاهنا ـ بين النبوة، والولاية، أكثر تأكيدا وأشد قوة. ويقر ابن فودي أن الأنبياء أفضل من الأولياء، ويشير إلى أن الإمامية[29] من الرافضة فضّلوا الأولياء على الأنبياء، وهو جهل كبير وتقصير منهم في فهم النصوص. ويورد أحمد بابا التنبكتي مثالا عن أحد العارفين ويدعى عفيف الدين اليافعي ممن قالوا بتفضيل الأولياء، مستدلا بقوله تعالى: (هل أتّبعك على أن تعلمني).[30] ويشير التنبكتي إلى أن قصة موسى عليه السلام مع الخضر، ليس فيها دليل على تفضيل الأولياء، بل تدل على حرص سيدنا موسى على زيادة العلم من حيث هو علم، فلم يكن: «ما مع الخضر مما خص به يوجب له الفضل عليه بلا خلاف».[31]

فإذا كان الأنبياء متفاضلين بحسب مناصبهم، فكيف لا يفضلون من سواهم؟! ويظهر من هذا أنه لا سبيل لأحد من الخلق إلى تحقيق مقامات الأنبياء،

وكذلك لا يعرف صفاتهم حقّ معرفتها سواهم. بالإضافة إلى أن الخلائق أحوج إلى النبي[32] منهم إلى الولي، وهم أشد حاجة إلى النبي من حاجتهم إلى الطعام والشراب والنفس الذي به حياة الأبدان.

ولا يمكن أن يغفل الباحث مسألة العصمة[33] التي أيد بها الله أنبيائه، أما الأولياء فهم بشر محل الخطأ، والنسيان، الذي يدعوهم إلى الاستغفار. وقضية ما أضيف إلى الأنبياء من الزّلل، فهو محمول على أن ما جرى لهم إنما: «جرى على ظواهرهم، وأسرارهم مستوفاة بمشهادات الحق».[34] لأن الله سبحانه وتعالى قال: (فَنَسِيَ وَلَم نَجِد لَهُ عَزمًا)[35] وأما ما ذهب إليه بعض المتصوفة[36]الذين راحوا يدعون بأنهم فوق جميع البشر، لأنهم لا يزالون أبعد حالا عن التجريد[37] الروحي المطلق. وهي إحدى شطحاتهم الكبيرة، التي لا ينطق بها إلا مستهتر. والغريب أن ابن فودي لا يتناول هؤلاء في خضم حديثه عن الأنبياء والأولياء.

وإذا لاحظ الباحث الأسماء الرمزية التي يُلقب بها الأولياء، وجد أن اسم كل نوع بما هو مندرج يعتبر بصورة أو بأخرى حالة خاصة قائمة بذاته. فإذا تناول الباحث نموذج الشيخ أحمد البكاي (بودمعة)[38]الذي كان ينشط بولاته وهو أشهر ولي بها كانت تهابه السباع، والوحوش! وهي تأمن عندما تكون بجواره، وتحكي الرواية التاريخية[39] أن الدعوة مستجابة عند قبره. الإشارة الطريفة هنا هي إجابة الدعوة عند الضريح، وهذا لا يخلو من مقاربة لطيفة بين ضريح هذا الولي، والأماكن والأوقات التي تستجاب فيها الدعوة عادة. وإذا كان الأمر كذلك فما جدوى أن تخص الشريعة تلك الأوقات والأماكن بالقدسية، ما دام ضريح ولي في ولاته، أو في غيرها، يكفي ويفي بالغرض المطلوب؟!

ويمكن القول بأن كل الأولياء أو الأفراد[40] ـ حسب المتصوفة ـ الذين تتكون منهم السلسة الصوفية يوهَبون علوما وقوى مختلفة وخارقة، وتوكَل إليهم ـ بصورة أو بأخرى ـ أدوار ومهام يتولونها، وكل ذلك في دائرة الترتيب حسب المكانة. لكن هذه المهام لا تحدد لنا الطبقة التي تُوكل إليها هذه المهمة أو تلك، فالطبقات تنطوي على كمٍّ من الأولياء مضطرب بين الثبات والتغير، وهم في مجموعهم مؤهلون للوصول إلى درجة بعينها من درجات مراتب الأولياء.

والولي الذي يستحق هذا اللقب هو الذي رضي بالعيش مع الخلق بقصد تعليمهم وإرشادهم، وبذلك تتحقق له الوراثة في أعلى مقاماتها حيث يُبلّغ رسالات الله إلى العباد، وكمال إرث الأنبياء والمرسلين إنما يكون في تعليم الخلق واجباتهم تجاه الخالق، وسوف يتحمل الولي من أجل ذلك الكثير من الألم وربما فوق ما يطيق. ولا ينبغي أن نفهم وجود الولي بين العامة هو نزول عن درجته أو ارتداد عن صفة الولاية، بل ينبغي أن نعده تضحية حقيقة، وهي أفضل وأكمل من الابتعاد والانعزال.

ونلاحظ نوعين من الفروق والاختلافات في طبقة الأولياء، فهناك الواصلون إلى نقطة النهاية في مراتب الولاية،[41] وهي النقطة التي لا يمكن لأي ولي أن يتخطاها أو يتجاوزها، وهؤلاء منحصرون في دائرة مغلقة لا يُزاد عليها أو يُضاف إليها. والنوع الآخر أقل شأنا من الأول ودائرته مفتوحة إلى يوم القيامة، ورغم هذه التفرقة فإن الأولياء هم المقربون، وهكذا تبدو العلاقة وثيقة بين مفهوم الولاية ومفهوم القربى في وجهها الصحيح وتعبيرها الأتم.

ويستعين متصوفة السودان الغربي وغيرهم[42] في تأييد ما يقولونه عن درجة الولاية بقصة سيدنا ـ موسى عليه السلام ـ مع الخضر، كما وردت في سورة

الكهف. ففي هذه القصة يبدو موسى ـ عليه السلام ـ في صورة المندهش المستغرب، وبرغم وعده المتكرر بعدم سؤال صاحبه الخضر (وهو ولي أو رجل صالح على الأرجح) إلا أنه ـ من فرط دهشته ـ نسي وعوده، وانبرى يجادل صاحبه ويُنكر عليه أفعاله، التي رآها خارجة تماما عما يقرره الشرع. وهذه القصة تتكرر كثيرا في الأبجديات الصوفية، فهناك ارتباط رمزي بين السمكة والحياة الجديدة،[43] فالسمكة كانت معدة للأكل لكنها سرعان ما تعود إلى الماء، وهناك سيجد الخضر الذي سيعلمه مما عُلِّم رُشدا.

ويوصي الشيخ عثمان بن فودي[44] بعدم النظر في كتب أهل الكشف، وأن ذلك لا يجوز إلا للعالم الذي يعلم كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، يأخذ منها ما بان رشده، ويدع ما لم يتضح له، مسلما له غير عامل به، لا لنقص في قائله، بل لعدم الوقوف على علمه، إذ لا يُكلف أحد بما لم ينته إليه علمه، بل لا يجوز له إتباعه.

ويقص علينا متصوف بشمال مالي ـ في خضم التأكيد على قدرة الأولياء ـ أنه لقي في ليلة واحدة بولاته الكثير منهم،[45] وجلس إلى بعض هؤلاء وسماهم بأسمائهم،[46] رغم أنهم توفوا قبل ميلاده بمدة طويلة. والرسالة التي يريد تبليغها أن هذه الدرجة (الولاية) هي مرتبة لا ينالها إلا الصفوة من القوم، الذين ترفعت أنفسهم عن الكثير من الرزايا. والفكرة الأخرى أن الولاية لا ينالها المرء بدون مباركة ممن سلك هذا الطريق، لأن الذين لقيهم بولاته: «وضعوا أيديهم بالتعاقب فوق رأسه وباركوه».[47] وهذا الذي يبارك يكون ممن بلغ مرتبة الكمال الإيماني فالتقاء الأولياء ـ في اليقظة أو في المنام ـ هو تأييد وإجازة من السابق إلى اللاحق.

ما يعاب على المتصوفة في مقارباتهم هذه، هو أن أغلب الأشياء التي طرحوها مألوفة، لكن الشيء غير المألوف هو محاولة الذوبان التي أشاروا إليها بين: الصوفي، والبطل، الذي يتقمصون شخصيته (في العادة يكون أحد الأنبياء). وبالتالي ألغوا عن أنفسهم كل ما يفرّقهم عن حقيقة ذلك النموذج، لذا فالمتصوفة ـ في الغالب ـ يَدَّعون لأنفسهم الأفعال الخارقة، وينفون الفروقات الموجودة بينهم وبين النماذج المختارة.

ويشن عمر الفوتي حملة على بعض الفقهاء وموقفهم الإنكاري للعلم اللدني أو علم الباطن، لأن المنازل المعنوية منحصرة في مقامات أهمها مقام العلم اللدني، في إشارة إلى قوله تعالى: (وَعَلَّمنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلمًا).[48] ويلمح إلى أن الخضر هو الذي أُعطي هذا العلم اللدني. وقامت محاولات في السابق على أساس توحيد الفقه والتصوف، واعتبارهما علما واحدا. وردّ الطوسي التصوف والفقه إلى علم الشريعة الواحد.[49] ويرى هذا المؤرخ الصوفي أن الفقه قائم على الرواية، أما التصوف فهو قائم على الدراية. ولا يجوز ـ في رأيه ـ أن يجرد القول في العلم أنه ظاهر أو باطن، لأن العلم متى كان في القلب فهو باطن فيه إلى أن يجري على اللسان ويظهر، فإذا جرى على اللسان فهو ظاهر. ويورد أحمد بابا كلاما للقدوة العارف أبا علي السقاط، وكان ممن يعرف الفقه معرفة جيدة، يأمر الفقراء، إذا عرضت لهم مسألة، بسؤال الفقهاء مع معرفته بها، ويقول: «إنما نرسلهم إلى الفقهاء ليعلموا أن ما نحن فيه إنما أصله وعماده والذي يقع به الحل والربط عندنا هو من الفقهاء، وما نحن فيه فرع عن ذلك».[50]

ويوضح الشيخ عبد الله بن فودي أن الفقه والتصوف شقيقان في الدلالة على أحكام الله وحقوقه، وأشار إلى الذين يطلبون علوم الصوفية ودقائقها قبل

علمهم بجملة أحكام العبودية منها، وعدولهم عن جلي الأحكام إلى غامضها، فهم واهمون مخدعون. ويطلب من المريد أن يكون: «فقيها صوفيا، لا صوفيا فقيها».[51]

ومن الذين تناولوا العلاقة بين الفقه والتصوف الإمام أبي حامد الغزالي، الذي أشار[52] بأن الفقه ينظر فيما يتعلق بمصالح الدنيا، أما نظر التصوف فهو ما يتعلق بمصالح الآخرة. وأعتقد بأن الفقه متعلق بمصالح الدنيا والآخرة، فالعبادات والمعاملات وإن كانت تجري في الدنيا إلا بمتعلقة بالآخرة من حيث الثواب والجزاء. أما التصوف فإنه أضيق من الفقه، لأنه متعلق بالتزكية وآداب النفس.

ويحاول متصوفة إفريقيا جنوب الصحراء أن يربطوا بين العلم اللدني ونهاية الطريق، الذي هو تطبيق الشريعة تطبيقا خالصا. ويؤكدون ذلك بعضهم ـ في مناسبات عدة ـ للحديث القدسي الشهير: (... وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها...). والقرب الأتم الذي هو معنى الولاية وفحواها ليس هو قرب النوافل المذكور في الحديث؛ لأن أداء النوافل مجالا لتحقيق الاختيار والإرادة من العبد، مع أن العبد في معناه الصحيح مسلوب الاختيار؛ وإذن فالاقتصار على أداء الفرائض ـ كالصلوات الخمس ـ هو في نهاية الأمر مدار اكتمال حظ السالك وتمام قسمته في طريق سيره وسلوكه. وبعد ذلك تحصل له السعادة، بعد مواظبته على الأعمال الصالحة، والتي يمده الله من خلالها بفيض الأنوار.[53] حيث يحس السالك اللذة والنعيم بإشباع النفس من غريزة التقوى، وذلك هو كمالها. لأن حقيقة العبد الخالصة، إنما هي امتثال العبودية المطلقة لله سبحانه وتعالى.

ويشير الشيخ عبد الله بن فودي[54] إلى أن الأعمال والأحوال للمريدين، والفوائد للعابدين، والحقائق للعارفين والعبادات لعائلة المستمعين.

وعرض ابن فودي موضوع العلامات الإلهية عرضا شيقا، ميّز فيه بين دلالات عديدة تضمنتها كلمة آية في استعمالاتها المتكررة في القرآن الكريم، ومزج فيه بين استخراج معاني الأشياء في عالَمنا، وبين فن تأويل الرؤيا الذي يدخل ضمن عمل الأقطاب واهتماماتهم. وهي إشارة جديرة بالتوقف، لأن تأويل الرؤيا غير مقتصر على درجة صوفية معينة. غير أنه يحاول أن يقارب بين القطب كمرتبة سامية في سلم المتصوفة، وبين الخطاب القرآني في سورة يوسف، إذ أن تفسير سيدنا يوسف عليه السلام للرؤيا في السجن كان سببا لأن يتمكن، ثم فسر الرؤيا الأخرى التي جعلته على خزائن مصر. وهل القطب بتفسيره سيسيطر كخليفة (الوراثة الأكيدة)[55] على جميع أهل المعرفة بالله!؟

وأغلب الفقهاء والعلماء ببلاد الساحل الإفريقي أولياء حسب البرتلي، فهذا الحاج أحمد بن علي الغلاوي الفقيه، هو أحد العلماء كان صالحا وليا وتقيا، معظما عند الخاصة والعامة، له مكاشفات، وقبره يتبرك به، يضع عنده أهل البلاد الأمتعة فتحفظ حتى يأتيها صاحبها.[56] وهذا أحمد بن الطالب الأمين الذي كان فقيها فاضلا، وهو نتيجة الأولياء العارفين.[57] وهذا الطالب أحمد بن البشير، ذكر أنه ذكر له بعض الصالحين قبل أن يبلغ خمسين عاما أن الصالحين اجتمعوا وجعلوه من أهل التصريف، وذكر أيضا أن مرض مرة، فكان أصحاب التآليف المشهورون كانوا يأتونه ويعودونه في مرضه، وآخر من يقوم من عنده الإمام الحطاب، ولما سئل عن ذلك فقال: إني كنت أدعو لهم.[58]

في ترجمة الشيخ محمد بن أحمد بغيع الونكري (ت 1066 هـ / 1655 م)، وهو آخر علماء آل أقيت بتنبكتو يعرفه السعدي ويصفه بسيد: «الوقت وبركته شيخنا شيخ الإسلام، ومفيد الأنام... عالم عامل فاضل تقي، ورع ناسك ولي، وهو خاتمة الأشياخ وآخرهم موتا».[59] وقد درّس مدة طويلة في جامع سنكوري العلوم اللغوية والشرعية، وتكاثر عدد الآخذين عنه.

والذي لا يلتزم بالشريعة لا يستحق الولاية، هذه الفكرة يمكن أن نقرأها في الكثير من أبجديات الصوفية بمنطقة الساحل وفي غيرها. وها هو الشيخ عبد الرحمن الأخضري يهجو مدعي الولاية في منظومته:

يا عجبا لرافض الشريعة كيف ادّعى درجةً رفيعة
فكيف يرقى سلّمَ الحقيقه مخالفٌ لسيد الخليقه[60]

ويلمّح إلى مرتبة الولاية التي قد يتحلها البعض:

قد ادعوا مراتباً جليله والشرع قد تجنّبوا سبيله
قد نبذوا شريعةَ الرسول فالقوم قد حادوا عن السبيل
لم يدخلوا دائرةَ الطريقه فضلاً على طريقة الحقيقه[61]

الخاتمة:

إن الحركات الصوفية في بلدان الساحل الإفريقي في تناولها لموضوع الولي والولاية، تبدو نموذجا مصغرا للملة الأصلية (الشيخ يمثل نموذج النبي على نحو ما) وهذا ما ذكره عمر الفوتي، حيث قال: «إن الشيخ في قومه كالنبي في أمته، وأن مبايعته كمبايعة النبي صلى الله عليه وسلم لكونه نائبا عن النبي»[62] والطرق بذلك تسعى في الوقت ذاته إلى تحقيق استقلال ذاتي يعتمد على السلطة المطلقة للأشياخ، وإلى خلق جماعة ذاتية التسيير تقود أحيانا إلى إرساء بنية سياسية حقيقية، مؤكدة أن توجهها الأساسي إن لم يكن الوحيد هو خلاص المريد عن طريق الإخلاص للشيخ.

الهوامش:

1ـ من جملتهم الإمام ابن تيمية.

2 ـ المختار ولد بونا الجكاني: يصفه ابن الأمين بتاج العلماء، وكان يتعثر في بداية أمره، ثم فتح الله عليه واشتهر بعلمه وخاصة في العربية وجاءه الطلاب من كل فج، ولا يوجد بشنقيط عالم بعده إلا وله عليه الفضل الجزيل، بما استفاد من مصنفاته، وتلقى من مسنداته، وكان ول بونا حيًا في أوائل القرن الثالث عشر، وهو عميد مدرسة الكلام والنحو بشنقيط، وكان لا يجارى فيهما، وقد طبعت طرته المسماة: بالاحرار في مصر، وطبع بعض تآليفه في مصر. ينظر: ابن الأمين، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مكتبة الوحدة العربية بالدار البيضاء ومؤسسة الخانجي بمصر، ط الثانية **1958**، ص ص: **277** ـ **283**.

3 ـ والمجيدري هو محمد بن حبيب الشنقيطي، كان داعية للعمل بالقرآن والحديث ونبذ التقليد المذهبي، ولم يترجمه صاحب فتح الشكور، لأنه لم يعتبره من أعيان العلماء، وإن كان قد ورد ذكره عنده كثيرا أثناء تراجم معاصريه الذين ردوا عليه. ينظر: البرتلي، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء

التكرور، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط الأولى 19881، ص: 14.

4 ـ الآية 227 سورة الشعراء.

5 عمر بن سعيد الفوتي، رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرحيم، طبع بهامش جواهر المعاني وبلوغ الأماني لحرازم، المطبعة المحمودية بمصر، ط الأولى 1318 هـ ج 1، ص ص: 18 ـ 67.

6 ـ محمد بلوالفلّاني، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، تحقيق بهيجة الشاذلي، مطبعة المعارف الجديدة الرباط، ط الأولى 1996، ص: 81.

7ـ إشارة إلى حديث جبريل الذي يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم: «أن تعبد الله كأنك تراه».

8ـ محمد بلو، المصدر السابق، ص: 93.

9 ـ المختار الكبير، الكوكب الوقاد في ذكر المشايخ وحقائق الأوراد، نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط، رقم 3827 د، و 17 و.

10ـ عبد الرحمن بن خلدون، شفاء السائل لتهذيب المسائل، دراسة وتحقيق أبو يعرب المرزوقي، المطبعة العربية تونس، ط 1991، ص: 198.

11ـ عبد القادر الفاسي، الإجازة الكبرى والصغرى، تحقيق محمد بن عزوز، دار ابن حزم بيروت، ط الأولى 2003، ص: 124.

12 ـ ابن الحاج، المدخل، ضبطه وخرج أحاديثه توفيق حمدان، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى 1995،ج 3، ص: 116.

13 ـ يشير الكلاباذي أن علوم الصوفية هي علوم الأحوال، والأحوال هي مواريث الأعمال، ولا يرث الأحوال إلا من صحّح الأعمال. ينظر: التعرف لمذهب أهل التصوف، ضبطه وعلق عليه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، ط الأولى 1993، ص: 97.

14 ـ ميشيل شودكيفيتش، الولاية، ترجمة أحمد الطيب، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، ط 1999، ص: 86.

15 ـ في خضم الصراع بين الإصلاحيين والطرقية يتحدث الشيخ مبارك الميلي عما أسماه: الحرب على حكومة القطب. ينظر: رسالة الشرك ومظاهره، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط 2000، ص: 203.

16 ـ عبد المجيد النجار، فقه التحضر الإسلامي، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط الأولى 1999، ص: 95.

17 ـ الكلاباذي، المصدر السابق، ص: 6.

18 ـ تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء، تحقيق سعيد سامي، منشورات معهد الدراسات الإفريقية الرباط، ط 1992، ص: 51.

19 ـ محمد بلو، المصدر السابق، ص:81.

20 ـ المختار الكبير، التذييل الجليل العادم المثيل، مخطوط بخزانة بالأعمش بتندوف، الرقم: 24، و1و.

21 ـ المقصود هو الشاعر محمد الأمين. ينظر: محمد الخليفة، الطرائف والتلائد في مناقب الشيخين الوالدة والوالد، نسخة مخبر مخطوطات الحضارة الإسلامية في شمال إفريقيا بقسم الحضارة الإسلامية جامعة وهران، دون رقم، و 234 ظ.

22ـ شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات، دار المعارف القاهرة، ط الأولى 1995، ص: 599.

23 ـ أبو الروابن: هو أبو عبد الله محمد، كان من عجائب الدهر، توفي آخر العشرة السادسة، ودفن في باب روضة شيخه ابن عيسى. ينظر: ابن عسكر، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، مطبعة الكرامة الرباط، ط الثالثة 2003، ص ص: 74 ـ 75.

24 ـ التصريف: وردت هكذا عند ابن عسكر، ولعلها التعريف. والذي يقصد به أن الله يريهم آثار قدرته في الأفاق والأنفس، ثم يُحدثُ فيهم لطفا، تدلهم الأشياء أن لها صانعا، وهذه معرفة عامة المؤمنين، والأولى معرفة الخواص. ينظر: الكلاباذي، المصدر السابق، ص: 70.

25 ـ مكناس: مدينة كبيرة أسستها قبيلة مكناسة فسميت باسمها. وتبعد عن فاس بنحو ستة وثلاثين ميلا، وعن سلا بخمسين ميلا. وهي تقع في سهل بديع جدا، ويمر بالقرب منها نهر صغير، وتحيط بها على مسافة ثلاثة أميال حدائق عديدة تنتج ثمارا ممتازة. ينظر: الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي بيروت والشركة المغربية للناشرين المتحدين الرباط، ط الثانية 1983،ج 1، ص: 214.

26 ـ ابن عسكر، المصدر السابق، ص: 75.

27ـ معروف الكرخي: هو أبو محفوظ بن الفيرزان، ينسب إلى كرخ بغداد. كان من النصارى فأسلم، توفي سنة 200 هـ / 815 م. وقبره ظاهر ببغداد يتبرك به. ينظر: الكلاباذي، المصدر السابق، ص ص: 24 ـ 25.

28 ـ ابن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقير، نشره وصححه محمد الفاسي وأدولف فور، مطبعة أكدال الرباط، ط 1965، ص: 43.

29 – الإمامية: وهم خمس عشرة فرقة كاملية ومحمدية وباقرية وناوسية وشميطية وعمارية وإسماعيلية ومباركية وموسوية وقطيعية واثني عشرية وهشامية وزرارية ويونسية وشيطانية، وكل فرقة من هؤلاء لها كلام في الإمامة والعقيدة. ينظر: عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الجيل ودار الأفاق الجديدة بيروت، ط 1987.ص ص: 38–39.

30ـ سورة الكهف الآية 65.

31ـ أحمد بابا التنبكتي، تحفة الفضلاء ، ص: ص: 50.

32 ـ ابن القيم، الفوائد، تحقيق حامد أحمد الطاهر، دار الفجر للتراث القاهرة، ط الأولى 2004، ص: 196.

33 ـ هناك أقوال كثيرة في العصمة وأقسامها، بينها الفخر الرازي في تفسيره. ينظر: التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي بيروت، د ت، ج 3، ص ص: 7 ـ 10.

34ـ الكلاباذي، المصدر السابق، ص ص: 77 ـ 78.

35ـ الآية 115 سورة طه.

36 ـ من جملتهم البسطامي. ينظر: عبد الرحمن بدوي، شطحات الصوفية، وكالة المطبوعات الكويت، ط الثالثة 1978، ص: 35.

37 ـ التجريد: معناه أن يتجرد بظاهره عن الأعراض، وبباطنه عن الأعواض؛ وهو ألا يأخذ من عَرَض الدنيا شيئا، ولا يطلب على ما ترك منها عِوضًا من عاجل ولا آجل، بل يفعل ذلك لوجوب حق الله تعالى لا لعلة غيره ولا لسبب سواه. ينظر: الكلاباذي، المصدر السابق، ص: 131.

38 ـ كان شديد البكاء، ولُقب بأبي دمعة على إثر حادثة مفادها أنه دفن بعد موته غرب ولاته، على حافة الوادي، وبعد بضعة أعوام انهارت ضفاف الوادي بعد أن جرفتها السيول، فرأى أحد السكان الشيخ في المنام وأمره بنقل جسده لمكان آخر، فقرر وجهاء البلدة نقل الضريح من مكانه، ونبشوا

الجثمان الذي ظهر كما وسَّدوه الثرى في أول يوم دفنه وعيناه مبللتان بالدموع! ينظر: بول مارتي، كتتة الشرقيون، عربه محمد محمود ولد ودادي، مطبعة زيد بن ثابت دمشق، د ت.ص: 31.

39 ـ البرتلي، المصدر السابق، ص: 31.

40 ـ الأفراد: جاءت من التفريد، وهو أن يتفرد عن الأشكال، وينفرد في الأحوال، ويتوحد في الأفعال؛ بأن تكون أفعاله لله وحده، فلا يكون فيها رؤية نفس، ولا مطالعة عِوض، ويتفرد في الأحوال عن الأحوال، فلا يرى لنفسه حالًا، بل يغيب برؤية محوِّلها عنها، ويتفرد عن الأشكال، فلا يأنس بها، ولا يستوحش منها. ينظر: الكلاباذي، المصدر السابق، ص: 131.

41 ـ شودكيفيتش، المرجع السابق، ص: 112.

42 ـ الجرعة الصافية والنفحة الكافية، نسخة مصورة بخزانة الحاج محمد برماكي بزاوية مولاي هيبة بأولف، دون رقم، و76 ظ.

43 ـ علي زيعور، الكرامة الصوفية والأسطورة القطاع اللاواعي في الذات العربية، دار الأندلس بيروت، ط الثانية 1984. ص: 181.

44 ـ إحياء السنة وإخماد البدعة، نشر الحاج طن أغي طابيريرو، دار الكتب المصرية القاهرة، ط 1981، ص: 249.

45 ـ محمد الخليفة، الطرائف، و 55 ظ.

46 ـ ورد في الطرائف اسم واحد منهم فقط وهو: علي بن محمد بن علي بن أحمد الأحوال. ينظر: الطرائف، و 74 و.

47 ـ بول مارتي، المرجع السابق، ص: 67.

48 ـ الآية 65 سورة الكهف.

49 ـ محمد جلال شرف، دراسات في التصوف الإسلامي شخصيات ومذاهب، دار النهضة العربية بيروت، ط 1984، ص، 18.

50 ـ أحمد بابا، المصدر السابق، ص: 50.

51 ـ عبد الله بن فودي، ضياء السياسات وفتاوى النوازل، تحقيق أحمد محمد كاني، الزهراء للاعلام العربي القاهرة، ط الأولى 1988، ص ص: 188 ـ 191.

52ـ ابن خلدون، المصدر السابق، ص: 181.

53 ـ محمد بلو، المصدر السابق، ص: 82.

54- ضياء السياسات، ص: 189.

55 ـ قلت هنا الوراثة الأكيدة، على أساس أن الولي يمثل الوراثة العادية.

56 ـ البرتلي، المصدر السابق، ص: 42.

57 ـ المصدر نفسه، ص: 53.

58 - المصدر نفسه، ص: 55.

59 ـ السعدي، تاريخ السودان، وقف على طبعه هوداس، مطبعة الأمريكان والشرق باريس، د ت، ص: 322.

60 ـ المصدر نفسه، ص: 124.

61 ـ المصدر نفسه، ص: 132.

62- رماح حزب الرحيم، ج 1، ص: 126.